ظاهرة الاغتراب في شعر منجك

الدكتورة هناء سبيناتي*

الملخص

إن بروز الجانب الذاتي في شعر الأمير منجك جعله من أشهر شعراء العصر العثماني، ومثّل شعر الاغتراب ذلك الجانب خير تمثيل. وكان لاغترابه أبعاد ثلاثة، وهي: اغتراب شعوري ينفذ في مضمر هواجس النفس إزاء معاناة الحل والترحال ومرارة الحرمان وهموم الإخفاق، واغتراب زماني في سياق الشعور بانعدام التواصل مع الآخرين روحياً واجتماعياً وأخلاقياً بعد تعمق الوعي عنده بالافتراق عن العصر، واغتراب مكاني بعد أن تحولت حياته إلى ضرب من القلق والاضطراب وعدم الاستقرار مادياً ومعنوياً. ثم لم يكن من الشاعر إلا أن سعى جاهداً لقهر هذا الاغتراب محاولاً تعويض فقده وحرمانه من خلال استعادة الماضي والفخر بنفسه واستدعاء التراث والتحلي بالإيمان. وكانت مطيته في ذلك لغته الخاصة التي تعبّر عن تجربته الانفعالية وقدرته الخاصة على التقاط المفردة التي تعبّر عن معاناته، فحفل شعره بلوحات فنية خالدة عبرت عن ذات واعية، سمت فوق الواقع للإحاطة بتناقضات الوجود، ومن ثم التطلع إلى عالم جديد يمور بكل ما هو جميل ونبيل.

* قسم اللغة العربية- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق

ظاهرة الاغتراب في شعر منجك:

يعدّ الشاعر الأمير منجك بن محمد بن منجك اليوسفيّ من أبرز شعراء العصر العثماني، فشعره شعر الفطرة المرهفة، نابع من إحساسه بجمال الحياة ومرارتها، وصدق شعوره بالأشياء، وبمكان الإنسان من الحياة.

ولد منجك في دمشق نحو عام (1007) للهجرة، ونشأ في نعمة وترف لأن أباه كان أميراً على الرقّة والرُّها، كما كان عظيم الجاه واسع الثروة.

شغف الأمير منجك بالعلم من أول أمره، ومال إلى الأدب خاصّة. تلقّى الحديث على (شهاب الدين أحمد الوفائي) و(أبي العبّاس المقّري)، وتلقّى الأدب على (أحمد بن شاهين). وقد أثنى المحبيّ على هذه المرحلة من حياته فقال: "نشأ مالكاً قوة الحافظة، وحسن التخيل والأداء، وكان فصيح اللهجة، فسيح ميدان المحادثة، كثير المحفوظات، جيد المناسبات، كريم الطبع، خلوقاً متواضعاً"[1].

وفي سنة (1032هـ) توفّي والده، فاندفع هو في الإنفاق والإسراف حتى أتلف جميع ما كان عنده وتَرِبَ بعدَ أَنْ أَتْرَب، فانتقل إلى البلاد الرومية، ثم استقرَّ في إستانبول، فلقي هناك إهمالاً كبيراً وعاش في فقر شديد. ولمّا خاب سعيه في أرض الروم، بعد أن مدح السلطان (إبراهيم) ولم يظفر بطائل، عاد إلى دمشق، واعتزل الناس إلى آخر عمره تقريباً. حتى كانت وفاته سنة (1080هـ) [2].

ولعل هذا كلّه أدى إلى نمو الجانب الذاتي في شعره الذي مثّل له (شعر الاغتراب)[3] بعد أن وجد الشاعر نفسه غريباً في محيط قاسٍ تنكّر له فيه كل شيء.

---

(1) خلاصة الأثر، المحبي، 410/4.

(2) ينظر في حياته: خلاصة الأثر، المحبي،409/4-423، ونفحة الريحانة، المحبي، 136/1-160، وريحانة الألبّا، الخفاجي، 135/1-149، وسلافة العصر في محاسن أهل العصر، ابن معصوم، 591/2-592.

(3) المقصود بالاغتراب اصطلاحاً: نمط من التجربة يصبح فيه الإنسان غريباً عن نفسه، متباعداً في الزمان رغم تلاصقه في المكان، وأن يعيش الإنسان مغترباً يعني –عند الفلاسفة- أن يتشيّأ وأن يفقد ذاته. الإنسان والاغتراب، مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص7.

وكان لاغترابه أبعاد ثلاثة، هي: اغتراب شعوري ينفذ في مضمر هواجس النفس إزاء معاناة الحلّ والتّرحال ومرارة الحرمان وهموم الإخفاق، واغتراب زماني في سياق الشعور بانعدام التواصل مع الآخرين روحياً واجتماعياً وأخلاقياً بعد تعمّق الوعي عنده بالافتراق عن العصر، واغتراب مكاني بعد أن تحولت حياته إلى ضرب من القلق والاضطراب وعدم الاستقرار مادياً ومعنوياً.

أولاً: الاغتراب الشعوري:

كانت نفسية منجك متأرجحة بين الوعي بقيمة الذات وبين الإحساس بالحزن، لما رُزئ به في حياته من أهوال ومحن، وما مُني به من حرقة التغرّب ولوعة الحرمان، والشعور بانفصام عُرا الألفة مع الناس والعالم المحيط به، ولهذا نراه يذهب إلى إنكار وجوده ضمن أهل عصره، وإلى تفاقم الإحساس لديه بانعدام الانسجام مع بيئته، عندئذٍ يبرز التصريح عنده بالغربة في الوطن وبين الناس، ويشكو ريب الدهر وعاديات الزمان وجفاء الإخوان والخلان، مع شدة تمسكه بتجلده وقيمه الرفيعه، فيقول: (1)

غريبٌ وإنّي فـي العـشيرةِ والأهـلِ	أرى الخِصْبَ ممنوعَ الجوانبِ مِنْ مَحْلِ
وأَصْـدقُ مَـنْ أُصْـفيه وُدّي مُـداهِنٌ	ومَلْعبُ طَوْقي منهُ في قبـضةِ النَّـصْلِ
وإنّـي لقـدْ جَرَّبْـتُ دَهْـري وأهلَـهُ	لَعَمري حتَّى صِرتُ أَنْفِـرُ مِـنْ ظِلِّـي
ونازلْـتُ للأيّـامِ كـلَّ كريهـةٍ	شدائدُهَا الجلاءُ تعجَـبُ مِـنْ حمْلِـي
وما كانَ يـدنو الفقـرُ منّـي لَـوَانَّني	رَضِيتُ كما ترضَى الأسـافلُ بالبخـلِ

يزرع الشاعر لفظة (غريب) في مطلع البيت الأول، وهي لفظة ذات تأثير عميق في نفسية المتلقي بما تحمل من إيحاءات، ثم يبدأ في تفصيل صورتها حين كان يتنفس العزلة ويحيا الوحدة، فرسم لنا هذا الافتراق بينه وبين ناس زمانه، وتتوسع

(1) الديوان: 95.

ظواهر الغربة لتشمل انعدام الصداقة وخاصة في زمن الحاجة وفي زمن انغلاق الآفاق، ويتمكّن منه تداعي الأفكار ليهرب ذهنياً من هذا العالم الغريب إلى الزمن الماضي المشرق، فيصيح في لحظة ضجر متسائلاً: (1)

مَـــنْ لوَجْـــدي وَحَيْرتـــي وانتهـــابي ولـــدَمْعي الهـــامي وقلبـــي المُـــذابِ؟
ولِتِـــــسْآلي الرُّبـــــوعَ ولُوعـــــاً بالأمـــاني مِـــنْ غيـــرِ رَدِّ جـــوابِ
ووُقـــوفي بكـــلِّ بـــابٍ وقـــدْ كـــا نَ وقـــوفُ العُـــلا علـــى أبـــوابي
لم تَـــدَعْ لـــي تجـــاربُ النـــاسِ خِـــلاً يُـــصطَفَى لـــي أو يُرتَجَـــى لمـــصَابي
فـــإذا مـــا عَتَبْـــتُ يومـــاً فقـــلْ لـــي أَعَلـــى مَـــنْ يكـــونُ فـــيهم عتـــابي؟

إن معايشة تجربة العزلة، وضياع الذات، وموت الأماني دفعته إلى مغادرة بلاده إلى بلاد الروم، ليعيش هناك غربة جديدة ستقوده إلى تجارب مشبعة بالمرارة والألم، وقد عزف منجك على أوتار غربته هذه من خلال حديثه عن علاقته الحميمة بأسرته، وعبر رصد حنينه إلى الأيام الخوالي.

ويبدو أن الشاعر كان قد ارتحل معتمداً على وعود مَنْ كان يتردّد على بلاد الشام من العلماء والوزراء، ولكنه وجد أن وعودهم هباء، وأنه كان مغروراً بدعاواهم. فندم على ارتحاله، لأنه كان يطمح من وراء هذه الرحلة إلى سدّ خلّته بعد أن ناصبته الأيام العداء، وقد صوّر لنا أسرته وهي باكية على فراقه، وصبيته الصغار وهم حفاة عراة: (2)

نزيحُ ديـــارٍ لا أنـــيسٌ ولا صَـــحْبُ وعاتِـــبُ دهـــرٍ لـــيس يُعْتِبُـــهُ العَتْـــبُ
منازلُـــهُ بالـــشَّامِ أضـــحتْ خَلِيّـــةً حَكَتْ جسَمهُ إذْ سارَعَنْ جسمِه القلْـــبُ
لـــهُ صـــبيةٌ عنـــدَ العُـــداةِ رَهينـــةٌ ومَدْمعُهُمْ مِـــنْ فَـــرْط لهفـــتهمْ صَـــبُّ
عُـــراةٌ إذا نـــاموا تَـــيَقَّظَ شـــرُّهُمْ فـــأمنُهمُ خَـــوفٌ وسِـــلْمُهمُ حَـــرْبُ

(1) الديوان: 99.
(2) الديوان: 304.

جَنيتُ على نفسي ليَ الـذنبُ كلُّـهُ بَسيْري، وما للدَّهْرِ فـي فعلِـهِ ذَنْـبُ
غُـرِرْتُ بـأقوامٍ وعـودُهُمُ هَبَـا تَمرُّ جَهاماً، واسـمُها عنـدَهم سُـحْبُ
يُلَبّـونَ بالـدَّعْوَى لطالـبِ سَـيْبهم ولو شَاهدوا فَلْساً على الأرض لانكبّـوا
ولم أرَ مِـنْ قبلـي علـيلاً طبيبُـه سقيمُ اختبارٍ ليسَ يعرِفُ مـا الطِّـبُّ!
يَمُـدُّ لـصيدِ المـدحِ منّـي حُبالـةً على الغدرِ معقوداً بأطرافهـا الكِـذْبُ

هذه الأبيات مشحونة بالمشاعر المختلفة، متأججة بالعواطف المحتدمة، تمثّل عدة تجارب من تجارب الشاعر، منها تجربة الإحساس بالفقد والغربة، وتنامي الشعور بالإخفاق والخيبة، وتجربة البعد عن أولاده والتوجع لحالهم في غيابه، وتجربة الندم على مغادرة الوطن، واليأس من الناس ومن نفاقهم. هذه الهزيمة النفسية المريرة التي لقيها الشاعر، ووقوفه وجهاً لوجه أمام مالا يرضى، جعله يُصيخ بعمق إلى هواتف نفسه باكياً متأوهاً، ويتسمّع إلى نواح الحمائم الشجي الملتاع، ويستحضر صورة أمه التي نزح عنها، وتركها تعاني آلام الشوق والبين، متذكراً قصر أبيه الكبير بين الغوطتين قائلاً:[1]

نَفْـــسٌ تُعلِّـــلُ بالأمـــاني لا بالقِيـــانِ ولا القَنـــاني
ومَـــدامعٌ مـــسفوحةٌ بـــينَ المعاهـــدِ والمغَـــاني
وأبِيْـــتُ مـــضمومَ اليديْـــ ـــنِ علـــى التَّرائـــبِ والجَنَـــانِ
أشـــكُو الـــصَّبابة للـــصَّبا بـــةِ بالمـــدامعِ لا اللـــسانِ
وأقـــولُ إذْ هتَفـــتْ بنـــا وَرْقَـــا شَـــجَاها مـــا شَـــجاني
يـــا وُرْقُ: مـــا هـــذا النُّـــوا حُ؟ فـــبعضُ مـــا عنـــدي كفـــاني
غـــادَرْتُ بـــينَ الغوطتيـــ ـــنِ بمَنْزلـــي الـــسَّامي المكـــانِ
أمّـــاً لهـــا كبـــدٌ علـــيَّ مُذَابَـــةٌ ممّـــا تعـــاني

(1) الديوان: 305.

تـــــستخبرُ الرُّكبْـــــانَ عـــــنْ حَـــــالي وتنـــــدُبُ كـــــلَّ آنِ
فعـــسى الـــذي أَبْلـــى يُعيـــــ نُ ويلتقـــــي نـــــاءٍ بِـــــدَانِ

إن الشاعر هُنا يتناصّ مع أبي فراس الحمداني، فتجربتاهما متماثلتان، وكان كلاهما صادراً عن نفسية موزّعة بين الماضي واستعادة الذكريات، وبين آلام الحاضر والتحسر على الواقع، كما كان كلاهما كاشفاً عن تمثّله لمعاناة الذات في حال اغترابها في بلاد نائية، إلى جانب التماثل المطروح عبر الوزن والقافية، مما يعني تمثّله لتجربته الشعرية ومحاولته امتصاصها.

وربما استوقفه حنين الأبوة بشكل خاص، فيسارع إلى الكتابة إلى ابنه (أحمد) وكأنه لا يستطيع أن يعيش دون أن يكتب إليه، وليس أمامه من متنّفس سوى تلك الزفرة التي تترجم مدى ألمه، وتعبّر عن ندمه على فراقه، وعن إحساسه بالتمزق واللوعة:[1]

أَحْمَدُ ابْنـــي إليـــكَ طـــالَ اشـــتياقي وزفيـــرِي قـــدْ جَـــدَّ فـــي إحراقـــي
أُتبْعُ الكُتْـــبَ بعـــضَها إثْـــرَ بعـــضٍ فلعلّـــي أشـــفي بهـــا أَحْـــداقي
أنتَ لـــي نـــشأةُ الحيـــاةِ فمـــا بعـــ ـــدَكَ عَـــيْشٌ يُلفَـــى شـــهيَّ المـــذَاقِ
مُلِئَتْ حَـــسْرةً عليـــكَ يـــدُ الوَجْـــ ـــدِ وَفاضَـــتْ مـــدامعُ الأشْـــواقِ
أحمقَ السَّعْيِ كنتُ بلْ أحمـــقَ الـــرَّأْ يِ إذْ سِرْتُ مُجدَّاً والرّكبُ في إقلاقِ[2]

إن الشاعر يتألم نفسياً إزاء غربته، وتتداخل لديه انفعالات القلق والاضطراب والإحباط والحيرة والإشفاق على أولاده الصغار، وشدة الشوق إلى الأهل، وهي مشاعر تبدو متداخلة ومعقّدة يحاول من خلالها الخلاص المؤقت مما ألمَّ به، لعله

(1) الديوان: 219.

(2) هذا البيت غير مستقيم الوزن في شطره الثاني، وقد نقلته من الديوان كما هو، فالقصيدة من بحر الرمل والشطر الثاني من البيت لا يستقيم عروضياً.

يتجاوز زمنه عوداً إلى الأمنيات وحديث الذكريات، فإذا هو يستشرف من مشاهد ماضيه فضله السابغ على الناس وأياديه البيض، فيقول:[1]

أبادَتْ بقايا الصَّبْرِ طارقةُ الدَّهرِ وعهدَ التَّصابي وهْي ريحانَةُ العُمْرِ
وطارَ بيَ البَيْنُ المشتُّ وإنَّ لي فِراخاً ضِعافَ السَّيْرِ عَنْ مَفْحَصِ[2] الوَكْرِ
كفَى حَزَناً حالي ومَا حالُ مُغْرمٍ يبيتُ على يَأْسٍ ويصبحُ في أسْرِ؟
لئِنْ حارَ مهجُورٌ سِواي بأَمْرِهِ فقدْ حارَ بي ممّا أنازلُه أَمْري
كأنِّي لم أصنعْ بجلِّقَ منْ يدٍ إذا ذُكِرَتْ أشتتُ رائحةَ الشُكْرِ
نَسوني ولو كانوا من النَّاس ما عَمُوا عنِ القمرِ السَّاري ولا جهِلوا قَدْري
تركْتُ بَهمْ مَنْ كانَ يؤنِسُ وَحْشَتي إذا سَئِمتْ رُوحي وضَاقَ بها صَدْري

إنَّه هنا يهرب من حاضر قاس، عزله عن بلده وأهله وذاته إلى ماض حبيب إليه يجد فيه ما يخفّف من آلام غربته ويلطّف من قسوتها.

فقد ارتحل منجك من وطنه إلى بلاد الغربة وهو يملك سلاح الشعر وغايته المال، فذاق ذلّ الغربة، وانكسار النفس، ووحشة الروح، وتأرجح بين أوجاع الاغتراب وآمال الانتصار الشخصي لإثبات وجوده والوصول إلى ما يبتغيه من مجد، فقال في ذلك:[3]

كَبِدٌ تَذوبُ وعَبْرةٌ تَترقرقُ وتلفُّتٌ نحوَ الحِمى وتَشَوُّقُ
وتذلُّلٌ في كلِّ بابِ مَذَلّة إذ عَزَّ مَنْ يُرجى لأمرٍ يَطْرُقُ
أسهرْتُ أجفانَ الأماني راصداً شمسَ النَّجاحِ فَسُدَّ منها المشرِقُ

إنها غربة الإنسان الذي يتقاذفه الإحباط، فيفقد ثقته بما يمتلك من يقين، ويستسلم لقناعات هي وليدة اليأس والقنوط. هذا وإن ظاهرة الإغراق في العزلة والنأي

(1) الديوان: 188.
(2) المفْحَصُ: حفرة تحفرها الدجاجة أو القطاة في الأرض لتبيض وترقد فيها.
(3) الديوان: 310.

عن الآخر، تنفذ إلى الوجدان، لتخاطب فيه الحنين إلى الوطن من جهة، وتعمّق الشكوى من جهة أخرى، ويشتد الحنين إلى الأهل والوطن كلما اشتدت المحن، وزاد الشعور بمرارة البعد والفقد، ولا يكاد سيل الحنين يتوقف عنده إلا من خلال ركونه إلى الماضي، وتوحّده بالمكان، بل وتوحّد المكان معه، واستحضاره لصورة العندليب بكل ما تحمله هذه الصورة من ألم نفسي عميق: [1]

والنَّيْرَبَانِ[2] علــى معاهــدِ أُنْــسِنَا   يتباكيـــــانِ بـــــأدمُعِ الغُـــــدْرانِ
والعنــدليبُ يقــولُ واطربــاً إلــى   مَنْ شجوُهُمْ قبلَ الهــوى أشْــجاني
كانوا بِجلِّقَ قبلَ مــا عــصفَتْ بهــم   ريحُ النَّوى كالوردِ فــي الأغــصانِ

إن هذه الأبيات تكشف عن ضرب من الحنين مشوب بغربة طاغية وإحساس دفين بالبين، وتستحضر هذه الغربة صورة النيربين ولكن وهي تنتحب، والعندليب ولكن مع أنغام التمزق والتحسر، مما يعكس قدرة الشاعر على الأداء المتمكن من تمثيل هواجس النفس وانفعالاتها وهمومها، بحيث تغدو الأبيات صورة مجلوة لذات الشاعر، وكأنّ روحه هي التي كانت تتحدث بما نطقت به الطبيعة لينصهرا في بوتقة وجدانية توحّدت فيها الذات بالموضوع بتلقائية واعية.

ثانياً: الاغتراب الزماني:

اصطدم منجك بواقع مرّ أليم بعد أن بدّد ثروة والده، وأصبح صفر اليدين، وانفضّ الناس من حوله، وأراه الدهر وجهه القبيح، فاتجه نحو نفسه يصوّر غربته في هذا الزمان، ويعبرّ عن إحساسه بالعزلة والإحباط النابع من رفضه للزمن الذي عاش فيه، ولشعوره أحياناً بالتفرد والانكفاء على النفس، وتحوّل الممدوحين عنه بعد تجشم عناء السفر والارتحال، ولهذا نراه يلوذ بالشكوى من نوازل الدهر، وذم الأيام والناس،

(1) الديوان: 91.

(2) النَّيْرَبانِ: تثنية نَيْرَب، قرية مشهورة بدمشق، على نصف فرسخ في وسط البساتين.معجم البلدان، ياقوت الحموي، 5/380-381.

ورثاء قيم العصر، مع توق شديد إلى حياة العزّ التي كان يحياها، وإلى أيام الشباب النضير التي أمضاها:[1]

آهٍ علـــــى زَمَـــــنِ الـــــشَّبا ب وَظِلِّـــــــهِ ذاكَ الظَّليـــــــلِ
ســـــافرْتُ بالآمـــــالِ فيـــــــ ـــــه، فلــم يْكــنْ إلا وُصُـــولي
تَبّـــاً لـــــدَهْرٍ أحـــوجَ الـــــ ـــــحُرَّ العزيـــزَ إلـــى الـــذَّليلِ
مـــا كـــانَ مـــاءُ وجوهِنـــا يُبـــــدي ابتـــــذَالاً للـــــسُّيولِ
مَـــنْ لـــيسَ يُقْنِعُـــهُ الكثيـــــ ـــرُ فكيـــفَ يرضـــى بالقليـــلِ
عُمُـــرٌ قـــصيرٌ فـــي النَّعيـــــ ـــمِ أبـــرُّ مِـــنْ عُمُـــرٍ طَويـــلِ

يستوقفنا التأوّه في مطلع البيت الأول، مما يضفي على النص جواً من الحزن والألم، يزاوج فيه الشاعر بين التحسر على الماضي، وبين مرارة الإخفاق في الحاضر، مما يعكس صدى غربة متمكّنة، لذا نراه يلجأ إلى مخاطبة نفسه أحياناً، فينتزع منها صورة من ذاته، يتمثّلها أمامه، ويمضي يبثّها شكواه وخواطره، ناقماً على دهره، الذي لم يرَ فيه إلا العسر والإهمال، فيقول مستنكراً:[2]

مالي وللـــدَّهْرِ لا أبغـــي بـــه طَلَبـــاً إلا وَضَـــيَّقَ مـــا أرجُـــو وَعَـــسَّرَهُ
كـــمْ جاهـــلٍ غَلَـــطُ الأيـــامِ قدَّمَـــهُ وَذُو الفـــضائلِ أَقْـــصَاه وأَخَّـــرهُ

إن الشاعر يشكو قسوة الزمان، ونوائب الأيام، ويندب سوء حظه وحاله، فهو لم يحمل روحه على كفه ويغامر إلا ليحقق أحلامه الكبيرة التي ارتحل من أجلها، وبينما هو يسعى لطلب المعالي، ويروم الشرف والمجد لا يلقى من الدهر إلا النحس والنكد:[3]

(1) الديوان: 186.
(2) الديوان: 156.
(3) الديوان: 219.

جُبْـــتُ كـــلَّ الـــبلادِ أحـــسَبُ أنَّ الحظَّ شـــيءٌ يبـــاعُ فـــي الأســـواقِ
غَبَرَتْ في وجـــوهِ ســـعدي اللَّيـــالي ورمَتْ بـــدرَ طـــالعي بالمَحـــاقِ[1]
مَنْ مُقيـــلٌ مـــنَ الزَّمـــانِ عِثَـــاري مَنْ مـــزيحٌ يديـــه مـــن أطـــواقي؟

شكلّ الزمان عند الشاعر هاجساً مهيمناً على كيانه الشعوري، فهو ينسب إليه كل ما يحيط به من رزايا، وما يصيبه من إخفاق، وما يؤثّر فيه من حرمان ومرارة وحسرة، فيخاطبه قائلاً:[2]

تصُولُ علينـــا يـــا زمـــانُ محارِبـــاً كأنَّكَ مِنْ قتلِ الأماجـــدِ فـــي حِـــلٍّ
أقولُ وما غيـــري بمُـــصْغٍ كـــأنَّني على صَفَحاتِ الماءِ أكتبُ ما أُملـــي
عَدِمْتُ زماني حيثُ يلعبُ بي كمـــا يريدُ ولم يُبْصرْ بأصبرَ مِـــنْ مثلـــي

إنه وجدان مأزوم، وإحساس بالتمزق، بعد أن نفد صبر الشاعر في معركته مع الدهر فلا يستطيع إلا أنه ينفّس عن أنينه المكبوت، ويتمنى أمنية غريبة هي أمنية اليائس الذي ضاق بكل ما حوله ومَنْ حوله، إنه الموت أمنية المغترب المتشرد المزحوم باليأس والمخنوق بالألم، لذا نراه يقول:[3]

عـــارَكَتْني شـــدائدُ الـــدَّهرِ حتَّـــى علَّمتنـــــي وقـــــائعَ الأحـــــوالِ
وأرتني المنونَ أشهى مـــن العَيْـــ ـــشِ وبِيضَ الأيَّـــام ســـودَ الليـــالي

فقد أصبح الموت أمنية ينتظر الشاعر تحقيقها بعدما عجز عن زحزحة صخرة الاغتراب عن صدره المتداعي، ولم يكتفِ بالإشارة إلى أنه يكفيه من أذى الزمن ما يتمنى معه الموت، بل نراه يذهب إلى إثارة موقف (الغربة) من خلال ذمّ أهل زمانه اتساقاً مع موقفه الرافض للزمن، فيقول: [4]

(1) المَحاق: آخر الشهر القمريّ حيث لا يظهر القمر.
(2) الديوان: 96.
(3) الديوان: 107.
(4) الديوان: 290.

وَاللهِ ما نظرَتْ عينـــاي مِـــنْ أَحَـــدٍ يَرْعَى وِدَادي في سرٍّ وفـــي علَـــنِ
لم أدْرِ هل ذَاكَ مُختصٌّ بحظّـــي أمْ سَجِيّةٌ هـــذهِ فـــي الخَلْـــق والـــزَّمَنِ
يا ليتني ما عَرَفْتُ الدهرَ صُـــحْبَتَهُمْ ولا رَمَاني زَمَاني الوَغْـــدُ بـــالمِحَنِ

إن الشاعر شديد الانفعال بما يجري حوله بعد أن عانى من جفاء الخلان، وضياع المعروف في الناس، وافتقاد المكارم، وبعد ما أُلِفَ ما تنطوي عليه طباع البشر من خداع ونفاق:(1)

وَطَفِقْتُ أسألُ عنْ كريمٍ قيـــلَ لـــي: اليـــومَ غيـــرُ أشِـــحَّةٍ لا يُخْلَـــقُ
مِنْ كلِّ مَنْ لـــو ظَـــنَّ أنّـــي جئْتُـــهُ فـــي حاجـــةٍ فالقلـــبُ مِنْـــهُ يَخْفِـــقُ

إن مأساة الشاعر تفاقمت منذ هبط إلى أرض الروم، حيث راحت تتصادم في باطنه مفارقات الدنيا وسخرية الأيام، وينمو في داخله إحساسه بغروب أحلامه وتبدد آماله وأمجاده، وفي لحظة ضعف إنساني يفقد توازنه، فتتفجر أمامه مشاهد من حياته الماضية، وتتهاوى في قاع الإخفاق، فيقف وقد أُسقط في يديه بعد أن جرّحته الأيام، ومزّقته الأحزان، وتناساه الصحب والخلان ولم يعد يسأل عنه أحد، فيتوجع منهم توجعاً ممضّاً، ويتساءل قائلاً:(2)

أَمَـــا فـــي جِلِّـــقٍ خِـــلٌّ صَـــديقُ يُنَبِّهُـــــهُ الفـــــؤادُ فيـــــستفيقُ!
يُسائِلُ عَنْ فتًـــى بـــالرُّومِ أَضْـــحى أســـيراً دَمْـــعُ عَيْنيـــهِ طليـــقُ
أذابَ البَـــيْنُ مهجتَـــهُ صُـــرُوفاً وحمّلَـــهُ الهـــوى مـــالا يُطيـــقُ
وحيـــدٌ مَـــا لِوَحْدتِـــهِ أنـــيسٌ غريـــبٌ مـــا لِغُرْبتـــهِ شـــفيقُ
إذا مـــا راحَ يستـــسقي ســـحاباً أجابَتْـــه رعـــودٌ أو بـــروقُ

(1) الديوان: 310.
(2) الديوان: 309.

إن تعاقب الإخفاقات والإحباطات تؤدي بالإنسان إلى اعتزال كل شيء، فالزمان كلّه بؤس وشقاء، والناس ليس فيهم فاضل ولا كريم، ووجود الخلّ الوفيّ مستحيل، والشاعر لا يملك إلا أدبه الذي أتعبه، وشعره الذي لم ينفعه، ومن هذه الرؤية للزمان والناس بنى منجك موقفه من الدنيا، وقد انتهى به المطاف إلى رفضها، وحثّ النفس على الزهد فيها وتركها، فيقول: (1)

أَرِحْ مَطَايا الأَمــاني واتْــركِ الطَّلَبــا ... لمْ يبقَ في العُمْرِ شيءٌ يُوجــبُ التَّعبــا
قَدْ أطلعَتْني علــى الأشــياءِ تجربــةٌ ... ما غادَرَتْ لــي فــي شــيءٍ إذاً أَرَبــا
ما زالَ يمنعُنــي مــا رُمْتُــهُ أدبــي ... حتَّى طَفِقْــتُ لَعَمْــري أكــرَهُ الأَدَبــا
حتّامَ يَغْرِسُ عندي مَــنْ بُليــتُ بــه ... غَرْسَ الوُعُودِ ويجني مَطْمعــي الكَــذِبا
إنْ قلتُ: وَاحَرْبا في الــدَهْرِ ملتمــساً ... منه الإعانــةَ قــالَ الــدهرُ: وَاحَرْبَــا

إنه منفصل عن الزمان، استوى عنده الفرح والترح، فهانت عليه الدنيا، وشعر أن كل شيء فيها وهم من الأوهام، لا يعدو أن يكون رسماً على التراب تذروه الرياح، فيخاطبنا وهو يتمزق من الداخل قائلاً: (2)

ألا لا تَبْــكِ حادثــةَ افتــراقٍ ... ولا تفــرحْ بلــذّاتِ الإيــابِ
فمــا الــدُّنيا ومــا ضــمَّتْهُ إلا ... كخَــطٍّ مُــنَجِّمٍ فــوقَ التُّــرابِ

إن الشاعر محاصرٌ بالاغتراب، ويكاد اليأس يخنقه ويقضي عليه، وهذا الأمر وحده كاف لأن يشكّل عنده بؤرة اغتراب حاد تتدفق في إبداعه نغماً حزيناً، وفكراً متشائماً، نتيجة المرارة والخيبة وتوالي المحن والأزمات، كما أن التظلم من الدهر والناس والدنيا يؤكد معاني الغربة والوحدة والانعزال.

(1) الديوان: 315.
(2) الديوان: 356.

ثالثاً: الاغتراب المكاني:

عانى منجك الاغتراب المكاني، وذاق كأسه المريرة، وقد عكف على التلويح باغترابه المكاني في رومياته، إذ يعرض ملامح رحلته إلى بلاد الروم، وهي تمثّل رحلة المغامرة المدفوعة بروح التفاؤل، والمزروعة بنور الأمل قائلاً:(1)

رَحَلْنا إلى الرُّومِ مِنْ جِلِّقٍ وَطَرْفُ الأمَاني عَرَاهُ العَرَجْ
وليس سوى الله من ناصرٍ إذا مَا غَريمٌ تَقَاضى ولَجّ(2)
خلَعنا الهمومَ على شَيْزَرٍ(3) وعنْدَ المضيقِ لَقينا الفَرَجْ

ولكن ما إن غادر بلاده حتى اجتاحته لواعج الحنين إليها، وأحسّ أنها ثوت في ضلوعه وطناً لا يبلى، وأنها استوطنت شغاف قلبه، وأن بلاد الروم لن تكون في يوم من الأيام وطناً بديلاً، وأن رحلته هذه رحلة اغتراب ومعاناة، فلا المكان مكان، ولا الصاحب صاحب:(4)

عَوَّضَتْني بالرُّومِ عَنْ جِلِّقِ الشَّا مِ أمورٌ للدّهْرِ ذاتُ انقلابِ
لا النَّديمُ الذي أراهُ نديمي في ذُرَاها ولا الشَّرابُ شَرابي
لا جيادِي تجولُ فيها ولا تُضْـ ـرَبُ يوماً للظّاعنين قِبابي

وتطول عليه الليالي، وتمتدّ الأيام، ويتشوّق إلى جلّق وإلى أيام المجد والسؤدد، لكنّ الأطواد الشامخة ولجج البحور كانت ماثلة أمامه، فقد أدرك أنه لا يستطيع أن يعيش دون أهله وأرضه، وأنّ المكان الذي احتواه صغيراً جزء منه تسري

(1) الديوان: 290.

(2) لجّ: ألحّ في الطلب.

(3) شَيْزَر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرّة بينها وبين حماة يوم. معجم البلدان، ياقوت الحموي، 434/3.

(4) الديوان: 99.

فيه مواجيده وتسكن فيه أمانيه، ولكن –ياترى- له الآن مكان في أحضان أهله وكنفهم أم أنهم تفرقوا عنه؟:[1]

بَيْنـــي وبَـــيْن أحبَّتـــي مِـــنْ جِلِّـــق لُجـــجُ البحـــور وشـــامخُ الأَطْـــوادِ
سَـــفَهاً أقـــول: أحبّتـــي، وضـــلالةً إذْ لا حبيـــبٌ يُرتجـــى لـــودادي

إن المكان ينتقل مع الشاعر في غربته، ويتداخل مع إحساساته تداخلاً يصعب عزله عنه، وكأن المكان مع البعد يصير امتداداً للذات يجد فيه المغترب كل شيء، بل إنّ العودة إلى ذاك المكان القديم احتواء لذات الشاعر يعزله عن ألم الحاضر، ولهذا ظلّ المكان الهاجس المحوري الذي يمتلك القدرة على شدّ الشاعر إلى منبته الأول، فقصرُ الشاعر الذي نشأ فيه له ألق خاص وسحر مميّز، يولّد في نفسه إحساساً متفرداً يجعله ينتشي كلما تحسّس جانباً من ذلك القصر الغائر في أعماق ذاكرته، فأرجاؤه كانت مرتعاً خصباً لمغامرات لهوه في أيام شبابه، لذا يستسقي لهذا القصر الفسيح وهو في بلاد الغربة، عسى أن يخفف هذا الاستسقاء عنه شيئاً من الضيق الذي ينتابه، وتتوالى الذكريات على لسان الشاعر دفقاً واحداً متصلاً، وهي ذكريات حبيبة إلى قلبه، معطّرة بشذا الحبّ والبراءة، ففي الماضي شبيبة وخمائل وخمر، والآن لا شيء إلا الهمّ والضجر:[2]

قَصْرَ الأمير بِوَادي النَّيربَيْن ســـقى رُبَاكَ عنّي من الوَسْميّ[3] مـــدْرارُ
كم مرَّ لي فيـــك أيـــامٌ هواجِرُهـــا أصـــــائلٌ وليـــــاليهنَّ أســـــحارُ!
حيثُ الشبيبةُ بِكْرٌ فـــي غَـــضَارَتها وللـــــصَّبابةِ أحـــــلافٌ وأنـــــصَارُ
حيثُ الخمائلُ أفلاكٌ بهـــا طلعَـــتْ زَهْرٌ من الزُّهْر والنُّـــدمانُ أقمـــارُ

(1) الديوان: 298.
(2) الديوان: 225-226.
(3) الوَسْميُّ: مطرُ الربيعِ الأول.

حيث المُدامةُ رَقَّتْ في زُجاجتِها يُديرُها فاترُ الأجفانِ سحَّارُ
يا قوتةٌ أُفرغَتْ في قِشْرِ لؤلؤةٍ فلاحَ للشَّرْب منها النُّور والنَّارُ
شمسٌ تعاطيْتُها مِنْ راحَتَيْ قمرٍ لهُ من الحُسْن ما يُرضَى ويُخْتارُ
حتى تيقّظَ دَهْري بعدما غَفَلَتْ عنّي حوادثُه والدَّهرُ غَدّارُ

إن وقفة الشاعر هذه أمام قصره تملأ النفس حزناً وشجناً، حزناً على ما مضى، وشجناً على من فارق، فقد كان موطناً للسعادة، وصار مع تطاول العهد ذكرى مُرّة المذاق يحنّ إليها وفي نفسه حسرة الانقضاء والفوت بعد زوال هذا النعيم وتولّي الجاه والإخوان. بل إن تذكّره لقصره رثاء لذاته وقد أفل نجمها وخبا توهّجها.

وغير خافٍ أن السلاسة والعذوبة تغلبان على النص السابق، كما خلا النص من البديع، وهذا بديهي "فالشاعر الغريب لا يقف كثيراً عند التماسك المكثّف المسمّى بالجزالة، أو التعامل مع الزخارف والبديع الذي كان يتطلب نوعاً من الاستقرار والراحة النفسية والفراغ، ولكنّ الشاعر الغريب كان في الغالب مهموماً ومسكوناً بالتّوتر ومتعاملاً مع الانفعال"[1].

وما أكثر ما كان منجك يقف في شعره عند داره أو دار والده، ولا ريب في أنّ إحساسه بالمكان يكشف عن عامل وجداني، فهو يختار مواضع غنية بالذكريات، مع انشداده الضمني لروح الماضي وما فيه من متعة وسرور:[2]

عَهْدي بِدارِ المنجكيِّ محمّدٍ مَثْوى جنودٍ أو مُناخُ وُفُودِ
تَتمتَّعُ الآمالُ منْهُ براحةٍ وطفاءَ[3] صِيغَ بنانُها مِنْ جُودِ

(1) الغربة المكانية في الشعر العربي، د. عبده بدوي، ص 38.

(2) الديوان: 222-223.

(3) الوطفاء: الديمةُ السَّحُّ الحثيثة، طال مطرها أو قصر. وأراد بالراحة الوطفاء: أنّ يده كثيرة الجود والكرم.

والعــيشُ غَــضٌّ فــي ذُرَاه كأنَّــهُ ... خُضْرُ العوارضِ في بَياضِ خُــدودِ
ويهزُّنَــا شَــرْخُ الــصبّا فتخالُنــا ... بيضَ المواضي في أكُــفِّ الــصِّيْدِ
عجباً لقلبــي كيــفَ يحمــلُ بعــدَهُ ... رُزْءَاً تــضيقُ بــه صــدورُ البيــدِ
فسقى مُلِثٌّ[1] الغاديــاتِ وأَدْمعــي ... مجــداً يُــلاذُ بظلِّــه الممــدودِ

إذا تأملنا الأبيات السابقة فإننا نلاحظ أنّ الشاعر يتحدّث عن داره التي قضى فيها أجمل أيام عمره في أيام لهوه وشبابه، فقد تحوّل المكان عنده إلى تجربة شعورية توحي له بالماضي المشرق والذكريات السعيدة "فالمواقف الشعورية داخل الإنسان لحظة الإبداع تعطي الكلمات الشعرية معانيها الحقيقية"[2].

وغالباً ما كان الشاعر يقف عند أمكنة بعينها في مدينة دمشق مثل النيربين، فهو يكرّر ذكره، واستسقاءه له، وتشوّقه إليه، فيقول:[3]

ســقى بــالنَّيربَيْنِ محــلَّ أُنْــسي ... هَتُونُ[4] الدَّمْعِ بلْ صَــوْبُ الهتــانِ
زمـــانُ مَـــسَرّةٍ تُلْهيـــكَ فيـــه ... عــنِ الأوتـــارِ قَهْقَهـــةُ القَنـــاني

إنّ لتكرار المكان ذاته أهمية في توكيد الأفكار التي تلحّ على وعي الشاعر، كما أنه يقدّم رؤية ثرة للتعبير عن اللحظات التي يحاول أن يستعيدها، فضلاً عما تمنحه الأصوات في قوله: (قهقهة القناني) من تجسيد صوري، ورنين إيقاعي يعكس أعماق الشاعر الانفعالية. فقد أصبح المكان عند منجك ممثّلاً لتجربة البراح والحنين

(1) ألَثَّتِ السحابة: دامت أياماً، فلم تقلع. وتَلَثْلَثَ الغيم والسحاب ولَثْلثَ إذا تردد في مكان كلما ظننت أنه ذهب جاء.
(2) الصورة الفنية في النقد الشعري، د. عبد القادر الرباعي، ص180.
(3) الديوان: 249.
(4) الهَتُونُ: الكثيرُ القَطْرِ. يقال: مطر هتون، وسحابٌ هتونٌ، وعينٌ هَتون الدمع.

والندم، تتجلّى فيه معاناته، وتبرز فيه مظاهر الاعتزاز بمآثر قومه والمفاخرة بما أنجز في فتوته وشبابه، فيقول:[1]

أُسْـدٌ تَفِـرُّ اليـومَ مِـنْ أشـبالِها لتقلُّـبِ الأيَّـامِ فـي أحوالِهـا
كانَتْ مرابِضُها في جِلِّـقٍ فَغَـدَتْ بالرُّومِ وهْـي أشـدُّ مِـنْ آجالِهـا
لجسومِها لم يَبـقَ فـي أَرْواحهـا أَرَبٌ لَعَمْـرُ أبيـكَ غيـرُ زوالِهـا
هانَتْ وكـانَ العِـزُّ فـي عَتَباتهـا وتـذلَّلَتْ للنَّـاسِ بعـدَ دَلالِهـا

إنّ ارتباط الشاعر بالمكان مثّل له عبوراً إلى الماضي، وعودة إلى الأيام الجميلة، مما يدل على رهافة حسّه ورقة عواطفه وإخلاصه في حبه لوطنه ومرابع صباه، كما أن وقوفه عند مكان بعينه يستدعي البكاء على الحياة، ويثير إحساساً بعنف تجربة الحرمان من الاستقرار، ويؤكّد عمق الشعور بألم الزمن الحاضر.

كشف هذا الاغتراب عن معاناة العزلة والوحدة وعن توق النفس إلى الاستقرار وشدة التعلّق بالأهل والوطن.

محاولات قهر الاغتراب:

حاول منجك أن يقهر اغترابه، وأن يعوِّض مشاعر الفقد والحرمان، فراوحت محاولاته بين استعادة الماضي، والفخر، واستدعاء التراث، والتحلّي بالإيمان.

أولاً: استعادة الماضي:

"للماضي نكهة خاصة عند الإنسان، ولاسيما ذلك الذي أثقلت أحزان الحاضر كاهله، وأخذ الاغتراب بخناقه، فالماضي على وفق هذا التصور مرفأ يرتاده الشاعر فراراً من الألم والتماساً للراحة، وإن كان في الحلم والخيال"[2]

(1) الديوان: 302.

(2) الاغتراب في الشعر العراقي، د. محمد راضي جعفر، ص52.

وبلاد الشام هي مرفأ الشاعر، ودمشق هي المدينة الحلم التي عجز الزمان عن أن يمحوها من ذاكرته، لأنها اقترنت عنده بالجمال والجلال، واستطاع بخياله المتوقّد وعشقه الملتهب أن يجعل منها بلد السرور والسعادة والبعد عن الهم والحزن، وفيها يقول:[1]

مَا يُنْبِتُ الحسنُ أو ما تجلبُ السفنُ ... بالشامِ يوجدُ، والأَفْضَالُ والفطَنُ
على المسرَّاتِ قَدْ شِيدتْ مرابِعُها ... فليسَ يسلُكُ فيها الهَمُّ والحَزَنُ
لم تَلْقَ غيرَ كبيرٍ في مهابتِهِ ... أو بَدْرَ داجيةٍ يمشي به غُصُنُ

إن تذكّره دمشقَ يعود عليه بالنشوة، وإن استعادته لماضيه سعي لإعادة الانسجام مع ذاته ومحاولة لخلق التواصل بين الأمس واليوم، فكان كلما حزبه حزن خشي الاستسلام، فحاول كسر حاجز الزمن من خلال معاودة الذكريات إلى الزمان والمكان الماضيين، حيث دمشق الحبيبة بمتنزهاتها ورياضها، بجمالها وبسحرها، وبأيام العزّ والنعيم فيها، يقول:[2]

إنَّ عرْبِيلَ[3] أطيبُ البلدانِ ... مَنْزِلُ اللَّهوِ والهوى والتَّهاني
لكَ يُهدي نسيمُها ورُباها ... نفحاتِ القَرَنْفُلِ الرَّيحاني
كمْ غديرٍ ينسابُ فيها لُجيناً ... أَعْشَبَ الرَّوضُ مِنْهُ بالعِقْيانِ[4]
وإذا وُرْقُها تَغَنَّتْ سُحَيْراً ... فوقَ عودٍ أَغْنَتْ عنِ العيدانِ
ليَ فيها أيَّامُ أُنسٍ تَقَضَّتْ ... غُرَراً في أَسِرَّةِ الأَزْمانِ
وَاتّكاءٌ على أرائكِ سَعْدٍ ... تَحْتَ ظِلِّي رَفَاهةٍ وأَمانِ

(1) الديوان: 293.

(2) الديوان: 191.

(3) عرْبِيل (عرْبِين): بلدة في غوطة دمشق، تسميتها آرامية قديمة تعني الغربال. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، بإشراف العماد مصطفى طلاس، 4/281-282.

(4) العِقْيان: ذَهَبٌ متكاثف في مناجمه، خالصٌ مما يختلط به من الرمال والحجارة.

إن جمال الأبيات عنده يأتي من تجسيم الإحساس بهذا المكان، مع التفهم الواعي لأبعاده الزمانية، وجعله صورة تزخر بحيوية الحركة والحياة. هذا وإن الزمان يقترن بالضرورة بالمكان، "وإن المكان يحتوي الزمن، ويجسد البعد الإنساني للواقع. وبمعنى آخر، إن المكان جزء من تكوين الإنسان، فالزمان يذوب في المكان أو يوازيه، ويتحقق اكتشافه بفعل الإدراك البشري الواقعي"(1).

والشاعر منجك وهو يحسّ بوطأة الاغتراب، لا ينفكّ يقف عند زمانه ومكانه الماضيين ليتأسّف على ما مضى من العمر، ويندب أيامه الخوالي، وهو منكسر النفس، موهون المشاعر، إذ لم يعد يملك إلا التذكر والدموع: (2)

بَكَيْتُ دماً إنْ لم أُرِقْ ماءَ مُهجتـــي دموعاً على تلكَ الليـــالي الـــسَّوالفِ
تـــذكَّرْتُ أيّامـــاً مَـــضَيْنَ وَمَأْلَفـــاً وعادةُ مَنْ يهـــوَى ادِّكَـــارُ المـــآلفِ

وتتوزّع مواقف الشاعر بين ذكريات الماضي الشفيف، وآلام واقعه العاتي، فلا يجد أمامه إلا أن يستسقي لقصره ولأيامه الجميلة التي قضاها مع من يحب:(3)

سَقَى اللهُ يومَ القَصْرِ إذ كـــانَ بينَنـــا حديثٌ كَمُرْفَضٍّ الجُمـــانِ المنـــضَّدِ
بِرَوضٍ يَجُولُ الماءُ تحـــتَ ظِلالِـــهِ كَـــأَيْمٍ مَـــرُوْعٍ أَوْ حـــسامٍ مُجـــرّدِ

إن الاستسقاء لقصره يعكس انشداد الوعي إلى الماضي، وإن في استعادة الماضي لتعزية للنفس من ألم الحاضر، أو هي إغفاءة مؤقتة كفيلة بأن تنسيه واقعه النكد، فهو لا ينفكّ يعود إلى الماضي وذكرياته ليخلق جسراً من التوازن العاطفي، ويعوّض عن نكسات الحاضر القلق.

---

(1) إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، ص 158-159.
(2) الديوان: 271.
(3) الديوان: 250.

ثانياً : الفخر:

يبدو أن سوء الحال الذي وصل إليه منجك كان من البواعث التي أذكت في نفسه روح الفخر، علّه من خلال فخره يستروح ذكر أمجاده الغابرة التي ذهبت بها الأيام، فإذا به يهرب من واقع الذل والهوان إلى ماضي المجد والعزّ والجاه، فيفخر بنفسه وبأسرته العريقة ليكون فخره بمنزلة تعويض له عن ذلك الواقع القاسي، فنراه يكثر من الاعتزاز بأحساب قومه، ويتغنّى بفروسيتهم وسيب فيضهم، وأيام السيادة والقيادة التي عاشها، قائلاً:[1]

نَـــشَأْتُ بمَهْـــدي رَفيـــعَ الـــذُّرا ... وَحَـــوْلي الظّبـــاءُ وأُسْـــدُ الـــشَّرَى
ونادَمْـــتُ كـــلَّ ســـخيِّ الوُجـــو ... دِ يُطْعِـــمُ نيرانَـــــه العَنْبـــــرا
وَوَالـــديَ الـــشَّهْمُ فحـــلُ الرِّجـــالِ ... وَجَـــدِّي الأميـــرُ أميـــرُ الـــورَى
وإنْ يمَّـــمَ الـــضَّيْفُ أحياءَنـــا ... بـــذلنا لـــه الـــرُّوحَ قبـــلَ القِـــرَى
ولكـــنْ أنـــاخَ علينـــا الزَّمـــانُ ... وخـــانَ عُهـــوداً لنـــا وافْتَـــرَى

يلجأ منجك في هذه الأبيات إلى استخدام ضمير المتكلم، وكأنما أراد إثبات بقاء الذات المفردة شامخة، حتى وإن عاد قفزاً إلى الماضي ثم تردّى أمام آلام الحاضر.

ومن هنا كان حرصه على ذكر مناقبه، وبيان قدرته على الصبر والتجلد، ومواجهة لحظة الألم، فكل ما حلَّ به من ضيق ذات اليد، وتنكر الأيام والناس له، لم يكن ليَكبح جماح فخره، بل كانت نفسه تجيش بقوة الإحساس بنبل أصوله، واعتزازه بنفسه، وإعجابه بشعره، وبمكانته العالية، وشمائله الرفيعة، فيقول:[2]

(1) الديوان: 189.
(2) الديوان:268.

لمْ تَمِلْ بي عَنِ العَفَافِ العُقارُ[1] أعشقُ الغيدَ والوقارُ وقارُ
أَنْظم الشِّعرَ ما حَيِيْتُ وإنّي لابْنُ بَيْتٍ تُهدَى لهُ الأشعارُ
يتحلَّى بيَ الزَّمانُ تحلِّي الـ غصنِ لمّا يزينُهُ النُّوَّارُ
صَقَلَتْني يَدُ التجاربِ حتَّى صحَّ عَزْمي وطابَ منهُ الغِرَارُ[2]
وَمَكاني مِنَ الفَخارِ مكانٌ حَسَدَتْهُ الشُّمُوسُ والأقمارُ

فالشاعر يفخر بنفسه، ويعدّد مناقبه، من خلال مراجعة متعمّدة لماضيه، ورغبة عارمة في تجاوز كآبة حاضره، لعله يجد في ذلك عزاءً في غربته، وسلواناً عما كان يلاقيه من شقاء، ففي فخره هذا متنفّس لهمومه التي تغلي في صدره إزاء تعثر إرادة الذات عن بلوغ غاياتها، وملاذ لهذا الحزن إزاء تناقضات الحياة واختلال الموازين فيها.

ثالثاً : استدعاء التراث:

استدعى الشاعر منجك بعض قصص التراث هرباً من الاغتراب الذي يقيد حاضره، ولجأ إلى التاريخ ليحقق كثيراً من طموحه الذي يعجز عن بلوغه في غربته، وهو بذلك يوازن بين ماض مكتنز بالمآثر وبين حاضر حافل بالمآسي فيعود إلى كتاب ربيع الأبرار للزمخشري، فيجد في قصة الواقدي مع المأمون ما يشابه حكايته ويؤنس وحشته، ويريح قلبه، ويزيح الهمّ عن صدره، فيذكر لنا ما رواه الزمخشري من أن الواقدي –رحمه الله تعالى- شكا إلى المأمون فاقة نزلت به وديوناً لم يعيّن مقدارها، فوقّع له المأمون: "فيك خلّتان سخاء وحياء، فالسخاء أبلى يدك بتبذير ما ملكت، والحياء منعك أن تذكر لنا فوق حاجتك. فإن كنّا قصّرنا فبجنايتك على نفسك، وإن كنا بلّغناك بغيتك فزد في بسط يدك، فخزائن الله مفتوحة، ويده بالخيرات مبسوطة وإنك كنت حدثتني إذ كنتَ قاضياً للرشيد أنه قال صلّى الله عليه وسلّم: "خزائن الرزق بإزاء

(1) العُقار: الخمرة، لأنها تعقِر (تجرح) العقل.
(2) الغِرارُ: حدُّ السيفِ والرمح والسهم.

العرش، يُنزل للناس أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كثَّر كُثِّر له، ومَنْ قَلَّلَ قُلِّل عليه" فقال الواقدي رحمه الله تعالى: ما فرحت بالعطية كما فرحت بالحديث، فإني كنت نسيته"[1] وما أظنّ أنّ الواقديّ فرح بالحديث أكثر من فرح منجك بالخبر الذي عثر عليه فنظمه شعراً بقوله:[2]

زعموا بأنَّ الواقــديَّ قــدِ اشــتكى	مِــــنْ فاقـــةٍ فأغاثَـــهُ المـــأمونُ
وروى لـــه مـــتنَ الحـــديثِ فإنّـــه	قــدْ قـــال خيـــرُ العـــالمين أمـــينُ
بـــإزاءِ عَـــرْشِ الله عـــزَّ جلالُـــه	رزقُ الـــورى بخـــزائنٍ مخـــزونُ
فمكَثِّـــــرٌ لمكَثِّـــــرٍ ومُقَلِّـــــلٌ	لمقَلِّـــلٍ للـــرزق وهْـــو خـــزينُ
فابسُطْ يمينَك بالعطـاء ولا تخـف	فـــالله ربُّـــك كافـــلٌ وضـــمينُ
فعمـــدْتُ لمّـــا أنْ ســـمعتُ مقالَـــه	لمطيتـــي ومـــنَ العيـــونِ عيـــونُ
وقصدْتُ بـــابَ الله أرجـــو فـــضلَه	إذ كـــلُّ فـــضلٍ دون ذلـــكَ دونُ
فعسى المواهبُ أن تكـون قريبـــةً	منّـــي ويَـــسْعَدُ طـــالعي ويُعـــينُ

إذا نظرنا في شعرية الخطاب الأدبي هنا فإننا نلحظ أن الشاعر وظّف الأسلوب القصصي، لينفذ من خلاله إلى مضمون الفكرة التي تملّكته، ومن ثم أراد غرسها في ذهن السامع أو القارئ، فبدأ بسرد الخبر ثم ضمّن الأبيات حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، نقلنا بعد ذلك إلى جو آخر فيه التطبيق العملي لمضمون الحديث، والثقة بما عند الله وبما ورد على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم. وكأنه هنا راح يجدُّ في البحث عن صيغة من صيغ التوازن بين ألم الحاضر وانسحاق ذاته، وبين تمثّل حال القوة والعظمة، التي يستمدها من عمق التاريخ، ومن عبق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيتحوّل ذكرها هنا إلى باب من أبواب عزاء النفس.

(1) الديوان: 385.

(2) الديوان: 386.

وقد يستلهم منجك التراث من زاوية أخرى يركّز فيها على الأنموذج أو الشخصية التاريخية، فربما يجد فيها ما يشبع تطلّعه إلى المثل العليا والقيم الرفيعة التي طالما سعى إليها، وتغرّب في ذاته من أجلها، فيلوذ بشخصية هارون الرشيد الذي أكرم الناس فأكرموه، وفاضت يداه بالنوال، ففاضت قرائحهم بالإبداع، وهو ليس أقلَّ من أبي نواس، ولكن أين هارون الرشيد اليوم؟ إن منجك يستذكره هنا وهو يطلب العزاء لنفسه، تخفيفاً لآلامه، ومداواة لجراحاته، فيقول:[1]

عَطَاءُ أُولي المكــارمِ كـــانَ فتحـــاً   لأبــــواب المـــــدائح والنَّـــــشيدِ
وكمْ في الناسِ مثــلُ أبـــي نُـــوَاسٍ   ولكـــنْ لـــيسَ يوجـــدُ مِـــنْ رشـــيدِ

إن الاتجاه إلى التراث هو أحد طرق الاحتماء بالماضي لمواجهة حصار الغربة، وإن استدعاءه بكل ما فيه من نماذج ودلالات وإيحاءات ليمنح الشاعر القدرة على مواجهة الحياة، بل إنه يحاول من خلاله تهدئة عناصر اغترابه، وتخفيف وطأته، وجعله نقطة انطلاق للمستقبل.

رابعاً : التحلّي بالإيمان:

أيقظت الغربة في منجك مشاعر الإيمان وصدق التوجّه إلى الله تعالى بعد أن استوحش من الناس، وآلمه تنكّرهم، ورمته الدنيا بأوصابها وقذاها، فوجد في رحاب الله واحة يفيء إليها في قيظ الحياة، وأنس في اللجوء إليه أماناً وحناناً، فأناب إليه ضارعاً متبتلاً بقلب خاشع أوّاه، واستحبّ الوحدة، واستلذّ الخلوة، حتى إنه ليكاد يقترب من الوجد الصوفي وهو يرتل أغاريد الحب والوجد متسائلاً مذهولاً:[2]

أينَ الأُسَـــاةُ فقلبـــي اليـــومَ مجـــروحُ   مُتَـــيَّمٌ لَعِبَـــتْ فيــــه التَّبــــاريحُ؟
رُوْحٌ تـــسيلُ علـــى خَـــدِّي فيحجبهـــا   دمــــعٌ، عليــــلُ فــــؤادٍ مالــــهُ رُوْحُ

(1) الديوان: 361.

(2) الديوان: 313.

والحبُّ سَطْرٌ بلوحِ الـصَّدرِ مُكْتَتَـبٌ مُتَـرْجَمٌ بلـسانِ الـشوقِ مَـشْروحُ
وَضعْتُ خَدِّي على كَفِّ الخُضوعِ وبي ذُلٌ علـى عَتَبَـاتِ العـزِّ مَطْـروحُ
فَلاحَ بـارقُ وادي الـشِّعْبِ وانتَبهـتْ نُوَّامُ وَجْـدي وَفَـاحَ الرَّنـدُ والـشِّيْحُ
وقـامَ هـاتِفُ ذاكَ الحـيِّ يُنْـشدُني بيتـاً يُـسَلِّي فُـؤادي فيـه تلـويحُ
إنّ الملـوكَ إذا أبوابُهـا غُلِقَـتْ لا تيئَـسَنَّ فبـابُ اللهِ مَفْتـوح

نحن هنا أمام مشهد حزين ومؤثر، يبدأ بالاستفهام في البيت الأول فيستثير في النفس أعمق ألوان الحزن والشجن، وفي البيت الثاني نسمع حشرجات متقطعة مكظومة، لتعبّر في البيت الثالث عن هذا الحب الجليل الصامت المستكن في أعماقه. ففرّغت هذه الأبيات الثلاثة شحنة لوعته، وغصة حسرته، وهدأت نفسه بعض الشيء، ليلقي عن كاهله في الأبيات التي تليها كل ما يحمل من هموم وأوجاع، ويقف على باب الرجاء الواسع، متعلقاً بالأمل، حالماً بالفرج، فيتقلب بين حالات الشكر الامتنان، وبين حالات الصبر والرضا، إنه يصعد ويهبط، ويستقر ويقلق، إلى أن يشعر بالقوة أمام قسوة الحياة وسطحية البشر، ويتعالى نشيد الإيمان بقوله:[1]

مَالي سِوَى مَلِكِ الملوكِ ومَـنْ لـهُ بـابٌ بأنفـاسِ الخلائـقِ يُطْـرَقُ
المـنعمِ الوهَّـابِ جـلَّ جلالُـهُ يُعْطي ويمنعُ مَـنْ يـشاءُ ويـرزُقُ
رامَ العُدَاةُ وقدْ ذَوى غُصْنُ الـصِّبَا أنْ لا تـروجَ بـضاعتي وتحَقَّقُـوا
قالوا: ثيابُك أُخْلِقَتْ، قلْتُ: اخـسؤُوا ظنِّي الجميـلُ بخـالقي لا يَخْلُـقُ
أنـا بلبـلٌ مـأواهُ دوحـةُ فَـضْلِهِ والجِيْـدُ منّـي بالعَطـاءِ مُطَـوَّقُ

لا شك أن للحوار أثره المهم، وقدرته على نقل المشهد إلى القارئ أو السامع وتجسيد الموقف، وهذا الحديث الذي دار بين الشاعر وخصومه في الأبيات وإن كان

(1) الديوان: 311.

قريباً من الحوار فهو ليس حواراً بالمعنى المفهوم، وليس من قبيل النجوى أيضاً، إلا أن أسلوبه هنا ينبئ عن صدق المضمون، أو قُل إنّ صدق المضمون أخضع الصياغة له. وأفصح عن نفسية الشاعر المفعمة بالإيمان، إذ تتحول عنده المحنة إلى منحة بحسن ظنّه بالله تعالى. وإن شئنا تأمل خصوصية أداء الشاعر بدا لنا وكأنما استطاع أن يسمو بنفسه فوق الحدث المرير الذي عاشه فكان صادقاً في أدائه عبر ماضيه وحاضره معاً.

أمَّا ابتهالاته وتوسلاته فقد غمرت شعره صدقاً، وهو واقف أمام الله تعالى، يناجيه ويدعوه، يعنو إليه ويتبتل في محرابه أن يرفع عنه البلاء قائلاً:[1]

إِلَيْكَ لقــدْ وَجَّهْــتُ مــولايَ وِجْهتــي فخُذْ بيدي مِنْ عَثْرتــي عنــدَ غُرْبتــي
أحاطَتْ بيَ الأهوالُ مِنْ كــلِّ جانــبٍ وغيــرُكَ لا يُرجَــى لكــشفِ بَلِيَّتــي

إنها لحظات صدق مع ربه، تُنسيه الدنيا وما فيها، وتعوّضه عما فقده، وتنير له ما أظلم من أيامه، وتندي قلبه بنعيم الحبّ وصفاء الودّ. إن تفجّر بركان الإيمان في جنبات نفسه أطفأ بركان المطامع الدنيوية، وردّه إلى حياة الأمن والأمان بعد أن كان تائهاً في بيداء الحياة ليس له صدر يؤويه ولا ظهر يحميه.

التحليل الفنيّ:

إنّ اللغة الشعرية "تعبيرية جمالية انفعالية تستخدم للتعبير عن أحاسيس واتجاهات وإثارتها عند الآخرين".[2] ولكل شاعر لغته الخاصة التي تعبّر عن تجاربه الانفعالية، ولا يمكن أن يُؤَسَّسَ المعجم الشعري بمعزل عن ذوقه ومزاجه لأن استعمال مفردات معينة لدى الشاعر يشير إلى أن حالة نفسية خاصة وراء هذا الاستعمال،

(1) الديوان: 412.
(2) الأسس النفسية للإبداع الفني، د. مصطفى سويف، ص 281-282.

ولذلك كان لكل شاعر معجمه الشعري، وهو حصيلة تكوينه الثقافي وقدرته الخاصة على التقاط المفردة التي تعبّر عن معاناته، فالمعجم هو الشاعر نفسه.

ومما يميز معجم منجك هو امتلاؤه بأدوات التشبيه، وأحرف النداء، وعُكّازات لغوية لا حصر لها، كقوله على سبيل المثال:[1]

أَذاقنـــي الحَـــيْنَ قبـــلَ حَيْنـــي نهـــــارُ بَـــــيْنٍ وأيُّ بَـــــيْنِ
وقـــالَ: خُـــذْ حـــسرةً لقلبـــي وقـــالَ: هـــاتِ البُكـــا لعينـــي
فـــأيَّ ذنـــبٍ جنيـــتُ حتّـــى غُرِّبْـــتُ حَـــوْلينِ كـــاملينِ؟

كرّر الشاعر في البيت الأول (النون) ليكون هذا الصوت أكثر إلحاحاً على البوح بأنينه وتأوهه ونحيبه، وجاء الخبر والأمر في شطري البيت الثاني منسجماً مع إحساساته الخاصة وتجربته الشعورية وما يكابده من آلام، في حين أخفى الاستفهام في البيت الأخير وراءه ظلالاً نفسية لغربة مقيتة يعيشها الشاعر وسط الصمت والسكون والضياع.

كما حفل معجمه حتى أقصاه بالألفاظ التي تدل على الاغتراب، وما يتصل به من أوجاع المكابرة، وبرحاء المعاناة، مثل: الحيرة، الغريب، الليل، قلوب، دموع، روح، أحزان، وجود، وعود، الردى، الأماني،، سهر، بُعد، حسود، وغيرها من الألفاظ المشابهة والبديلة، ومن ذلك قوله:[2]

ما علَـــى مـــا لَقِيْتُـــه مِـــنْ مَزيـــدِ مِـــنْ وُعـــودٍ كذوبـــةٍ أوْ وَعيـــدِ
أتمنَّـــى دفـــعَ الـــرَّدى، والأمـــاني ساخراتٌ مِـــنْ طَـــالِعي وجُـــدودي
حَيْرتي حَيْـــرةُ الغريـــبِ إذا الليـــ ـــلُ أتـــى واليتـــيمِ يـــومَ العيـــدِ
وكـــأنَّ النُّجـــومَ قـــدْ عوَّضـــتْني سهرَ اللَّيـــلِ مُكْرهـــاً مِـــنْ سُـــعُودِ

(1) الديوان: 303.
(2) الديوان: 308.

أنـــا أصـــبْحتُ لا أُطيـــقُ حَراكـــاً بـــينَ قـــومٍ قلـــوبُهُمْ مِـــنْ حديـــدِ
ودُمُوعي تُـــسَمَّى دموعـــاً ولكـــنْ هِيَ رُوحي تَـــسيلُ فـــوقَ خُـــدودي
جَمَعَتْ ليَ الأضْـــدادُ أيـــامَ دَهْـــرٍ هَيَّأَتْ ليَ الأحزانَ قبـــلَ وُجـــودي
فرقيـــــبٌ ولا حبيـــــبٌ وبُعْـــــدٌ فـــي دُنُـــوٍّ وعِـــشْرةٌ مَـــعْ حَـــسُودِ

تكشف هذه الأبيات عن وجوه معاناة الشاعر من خلال ألفاظ معينة تؤكد معاني الاغتراب، ويغلب عليها الحسرة، وهمس النفس الباكية، وظهور كآبة (الأنا) في قمة حزنها، والقلق إزاء كل ما يحيط بها.

ويتجلى البعد النفسي لهذه الألفاظ من خلال الأساليب البلاغية التي تضمنتها، ومنها (الطباق) إذ عمّق الشاعر معنى الاغتراب عبر تضاد الألفاظ الذي يبرز تضاد عالم الشاعر وصراعه مع الأيام بين وعود ووعيد، وقلوب وحديد، وبعد ودنو. وقد ساعدت حركة الأفعال الماضية والمضارعة في الأبيات على إثراء دلالات الاغتراب عند الشاعر، فالأفعال تجسد البعد الزمني للمواقف أو الفِكر التي يتحدث عنها، وتؤثر في نمو مكونات التجربة الشعرية على نحوٍ تدريجي، وقد ورد الفعل الماضي في هذه الأبيات ست مرات ليدلّ على أنّ صورة الماضي تهيمن على تفكيره ومشاعره، وعلى عمق غربته، وشدة نكوصه إلى الزمن الفائت، ثم لا يلبث أن يأتي الفعل المضارع أربع مرات ليعيد الشاعر إلى الحاضر بما فيه من أحداث مستمرة وظواهر متكررة يعاني منها، وبذلك ترتبط البنية الشعرية عنده بحالته النفسية القلقة والمكلومة.

كما أكثر منجك في معجمه من ألفاظ الطبيعة، ولجوء الشاعر إلى الطبيعة يبثّها أحزانه وأوجاعه رجوعٌ إلى ذاته وعكوف عليها، فالإنسان جزء من هذا الكون الفسيح، وهناك علاقة وثقى لا انفصام لها بين جزئيات هذا الكون الذي نعيش فيه، ولذلك لا غرابة إذا امتزجت مشاعر القربى بين الشاعر وبين الطبيعة بمشاعر الغربة، فليست الطبيعة إلا صورة لحياة الشاعر النفسية، وقد توافر في معجم منجك الكثير من

ألفاظ الطبيعة، مثل: الصباح الرياح والليل والمساء والماء والبحر والسحب والبرق والرعد، ومن ذلك قوله:[1]

ذَهَبَ الشِّراعُ وَضَـلَّتِ المُـلاحُ[2] في جُنْحِ ليـلٍ مـا لِـذاكَ صَـبَاحُ
وَسَفينتي لـمْ يبـقَ منهـا قِطْعَـةٌ إلا وَمَزَّقَهـا بِلًـى وَرِيـاحُ
والسُّحْبُ تَهْطُلُ والرُّعودُ صَـوَاعقٌ والبَـرْقُ سَـيْفٌ فاتـكٌ سَـفَّاحُ

وغير خاف أن الشاعر قد استخدم الأحرف الانفجارية والاحتكاكية في هذه الأبيات، مثل: الكاف، والتاء، والباء، والضاد، والدال، ليعبّر من خلالها عن المعاناة الصاخبة التي يحسّها، ولعلنا لا نبالغ في هذا التفسير، فالنص "يتشكّل وفقاً للحالات الشعورية والرؤية الفكرية للشاعر، وتأتي الأصوات تعبيراً عن هذه الحالات الشعورية"[3].

فالشاعر هنا يسقط ما في نفسه من شعور عميق بالقلق وإحساس بالتوتر فتكتسي عناصر الطبيعة بالسواد والضباب والاضطراب، وتقتل كل جمال وإشراق فيها. فقد توحّدت الطبيعة مع قلقه واكتئابه، فالغربة شديدة الوطأة كالطبيعة الهائجة. وهو يكثر من ذكر عناصر الطبيعة وكأنه يرى فيها صورة ذاته وما كان يعانيه من حزن وقلق، كما يعكس من خلالها إحساساً دفيناً بالعزلة والإحباط إلى جانب محاولة النجاة منه عبر الولوج إلى عالم الذكريات الماضية التي يعتدّ بها، فيقول:[4]

كُنْـتُ كالبـدْرِ إِذْ عَـرَاهُ كُـسوفٌ ونَجا في الـسَّما ضـئيلُ الـدَّرَارِي
كُنْتُ كالشمْسِ حـينَ يَحجبُهـا الغَيْـ ـمُ فَتَروي العُيـونَ عَـنْ إبـصارِ
كُنْـتُ كـالعَنبرِ الـذي فـاحَ طِيْبـاً حيـثُ يُلْقَـى مـنَ الزمـانِ بنـارِ

(1) الديوان: 314
(2) (المُلاَّح) جمع مَلاح لم يرد في لغة العرب.
(3) الهندسة الصوتية الإيقاعية في النص الشعري، مراد عبد الرحمن مبروك، ص186.
(4) الديوان: 198.

كُنْتُ كالجَوْهرِ الـــذي صَـــانَهُ الدَّهْـــــرُ لحرْصٍ عليـــه وَسْــطَ البحـــارِ
كُنْـــتُ كـــالرَّوضِ إذ جفتْـــهُ غيـــوثٌ لحظُـــوظٍ فأخْـــصَبَتْ أشـــعاري
كُنْتُ كالصَّقْرِ إذ لَوَتـــهْ عـــنِ الـــصيْــــدِ بُغَـــاثٌ مِـــنْ أَشْـــأمِ الأطيـــارِ

إن الشاعر لا يرمي إلى الفخر هنا بقدر ما يؤكد تغربه وتفرده من خلال تكرار الفعل (كنتُ) وهو تكرار يطرح بُعداً كمياً لذلك الحنين الذي يعيشه إزاء مشاهد الماضي، وبتكرار هذا الفعل يتكرر موقف (الأنا) في وضعها الانهزامي، إنه يفصح عن شعوره بالاستلاب من خلال الفعل المكرر حالماً أن يوزع آلامه بين المشهدين مشهد ماضيه العريق وسيادته كأمير وعلم مشهور في قومه، وبين مشهده في بلاد الروم وقد فقد كل عزّ وجاه، وهو ما يتأكّد مرة أخرى بما يشبّه نفسه به فهو كالبدر، وكالشمس، وكالعنبر، وكالجوهر، وكالروض، وكالصقر، ليعيش من خلال هذه الصور الطبيعية تجربة الاغتراب بكل ما فيها من أبعاد نفسية متضاربة ومتصارعة.

ويبرز التشخيص أسلوباً في شعر منجك بقصد تجسيد تجربته الانفعالية، عن طريق تحويل الأفكار المجرّدة إلى صور حسيّة تجسّد ما يكون عليه البشر من صفات وطباع، ومن ذلك مخاطبة الزمان وكأنه شخص يخون جهلاً لا عمداً:(1)

وأَظُنُّ دَهْـــري لـــم يَخُنّـــي عامـــداً لكنَّـــه مِـــنْ جَهْلِـــهِ لا يَفْـــرِقُ
طِيْـــبُ الأَرومَـــةِ أوهمتُـــهُ بـــأنَّني كالعودِ يَظْهـــرُ عَرْفُـــهُ إذْ يُحْـــرقُ

ويعكس التشخيص هنا ألوان العذاب والشقاء الناجمة عن ظلم هذا الدهر وغدره به، ونجد كذلك أن المكان عنده ليس واقعياً دائماً إنما هو من صنع الخيال المحض، فهو يتخيّل أنّه يركب الريح حصاناً، ويحمل البرق سوطاً، وأن الزمان إنسان

---

(1) الديوان: 310.

تعجزه الهموم والنوازل، فيرسلها إليه، بل إنه يحلّق أكثر من ذلك ويرى مكانته فوق النجوم، ولكن هيهات هيهات! فهذا كله مجرد أحلام وأمنيات:[1]

وَلكنْ لــوْ رَكِبْــتُ الــرِّيحَ طِرْفــاً ... وكانَ البَــرْقُ سَــوْطاً فــي يَــدَيّا
وســابقَني الجهــولُ علــى حمــارٍ ... لكــانَ الــسَّبْقُ فــي الــدُّنيا عَلَيّــا
ولــو أَعْيَــا الزمــانَ الوغْــدَ هــمٌّ ... فــــأعجَزَهُ لأرســــلَهُ إليّــــا
ولــــو أنَّ الــــسعادةَ بــــالتمنِّي ... رأيــتَ منــازلي فــوقَ الثُريَــا

استطاع الشاعر من خلال أسلوب التشخيص تحويل الإحساس بالاغتراب الزماني والاغتراب المكاني إلى صور مفعمة بالحركة. كما أن استخدام ضمير المتكلم ثم إلحاقه بألف الإطلاق في أواخر الأبيات ليدلّ على امتداد حزنه، ولانهائية حرقة فؤاده، كلما عرض لجانب من جوانب تجربته الكئيبة.

إن الشاعر يحسّ بوطأة الاغتراب، وإن اغترابه هذا لا يدع خياله في انديا‌حه السعيد وإنما يعيده إلى حاضره حيث اليأس والذلّ والتأسّف على ما مضى من العمر، وفي ذلك يقول:[2]

أبادَتْ بقايا الصَّبرِ طارقــةُ الــدهر ... وعهدَ التّصَابي وهي ريحانةُ العُمْرِ
كأني لم أصــنعْ بجلّــقَ مــنْ يــدٍ ... إذا ذُكرت أشــتمُّ رائحــةَ الــشُّكرِ
نسَوني ولو كانوا من النَّاسِ ما عَمُوا ... عن القمرِ السَّاري ولا جهِلوا قَدْري

لعل الصورة التشبيهية هنا قادرة على الاختصار، فقد اختصرت معاناة الشاعر الذي ذاق من الدهر ما ذاق حتى فني صبره، وذوى شبابه، وذبلت ريحانة عمره، ولعل الجمالية الأخرى تأتي من استخدام الشاعر أداة التشبيه (كأنَّ) بما تحمله من ظنّ بمعروفه وإحسانه، أمَّا رائحة الشكر فهي تحمل دلالة إيحائية فيها الألم النفسي

(1) الديوان: 237.
(2) الديوان: 188.

وفيها حزن الفقد العميق والانكسار الداخلي، وهو في البيت الأخير يحذف أداة التشبيه رغبة منه في الوصول إلى المشبّه به بسرعة فيحقّق سرعة فنيّة في الجمع بين العمى الذي أصاب الناس وبين ظهوره في عليائه كالقمر الساري.

وأخيراً إنّ أقسى تجربة عاناها الشاعر هي تجربة الاغتراب المسكونة بألوان الشقاء والبعد والقلق والعذاب، والموزعة بين اغتراب شعوري واغتراب زماني واغتراب مكاني. ولكيلا يتحول الاغتراب إلى جحيم لا يطاق فقد سعى منجك إلى قهره أو تجاوزه أو التخفيف من آثاره. من خلال عدة طرائق تعويضية تمثّلت في استعادة الماضي والفخر بنفسه واستدعاء التراث والتحلّي بالإيمان.

وهكذا حفل شعره بلوحات فنية خالدة عبّرت عن ذات واعية مغتربة سمت فوق الواقع للإحاطة بتناقضات الوجود ومن ثم التطلع إلى عالم جديد يمور بكل ما هو جميل ونبيل.

إنّ الشاعر عانى تجربة شعورية أليمة فتوهج إحساسه الشفيف، وتفجرّت عنده مكامن الإبداع، فكان ذلك الشعر المؤثر بدلالاته وإيحاءاته.

المصادر والمراجع

1- الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، د. مصطفى سويف، دار المعارف، مصر، 1969م.

2- إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986م.

3- الاغتراب في الشعر العراقي (مرحلة الرواد)، د. محمد راضي جعفر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999م.

4- الإنسان والاغتراب، مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 1985م.

5- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمّد أمين المحبّي، دار صادر، بيروت، د. ت.

6- ديوان منجك باشا، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2009م.

7- ريحانة الألبَّا وزهرة الحياة الدنيا، شهاب الدين الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005م.

8- سلافة العصر في محاسن أهل العصر، علي بن معصوم المدني، دار كنان، دمشق، ط1، 2009م.

9- الصورة الفنية في النقد الشعري، د. عبد القادر الرباعي، مكتبة الكتاني، إربد، ط2، 1995م.

10- مجلة عالم الفكر، أبريل-يونيو، الغربة المكانية في الشعر العربي، عبده بدوي، الكويت، 1984م.

11- معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

12- المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، بإشراف العماد مصطفى طلاس، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ط1، 1992م.
13- نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، محمد أمين المحبّي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1967م.
14- الهندسة الصوتية الإيقاعية في النص الشعري-دراسة نصية-، مراد عبد الرحمن مبروك، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط1، 2000 م.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2012/6/10.